

د. محمد عمارة

مُسْتَقْبَلُنَا بَيْنَ

التَّجَارِكِ الْإِسْلَامِيِّ
وَالْحَدَاثَةِ الْغَرْبِيَّةِ

مكتبة الشرق الدولية

مستقبلنا بين

التجليد الإسلامي.. والحداثة الغربية

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م



ش.الفتح - أبراج عثمان - أمام المرييلاند - روكسى-القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

د. محمد عمارة

مستقبلنا
التجديد بين
الجدائنة
الإسلامي
الفريية

مكتبة الشرق الدولية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

فى لقاء مع عدد من المثقفين الأندونيسيين - ذوى التوجهات الإسلامية - وأثناء استعراض واقع الفكر الإسلامى المعاصر - حدثتهم عن تمايز تيارات الفكر فى عالم الإسلام، وتوزعها - على وجه الإجمال - إلى:

أولاً: تيار الجمود والتقليد لثرائنا الفكرى، وعلى الأخص منه تراث عصر التراجع الحضارى لأمتنا وحضارتنا. - ذلك التيار الذى ينظر، فقط، إلى الخلف!.. ويقف عند ظواهر النصوص، مغفلاً المقاصد التى تغياها الشارع من وراء هذه النصوص.. بل ويتخير من النصوص «النصوص الوسيطة»، بدلاً من «النصوص الأولى»، المقدسة والمعصومة - غافلين عن معنى «النص» فى علم أصول الفقه، وهو الذى لا ينطبق على كل «عبارة»، وإنما يقتصر على ما هو قطعى الثبوت وقطعى الدلالة، الذى لا مجال فيه لأى تأويل.

ولذلك كله، فإن هذا التيار - تيار الجمود والتقليد - يخاصم النظر العقلى فى حكم وعلل الأحكام التى جاءت بها النصوص.. مع إهمال فقه الواقع المتغير، والذى يتطلب - فى الفروع - أحكاماً جديدة، تواكب المتغيرات، وتستجيب للمصالح الشرعية المعتمدة التى تفرزها هذه المتغيرات.

ثانياً: تيار التغريب والحداثة الغربية، ذلك الذى انطلق وينطلق من المرجعية الفلسفية للحضارة الغربية، معتمداً مناهج النظر «الوضعية - العلمانية» - وأحياناً المادية - التى تعاملت بها تلك الحضارة مع الدين وحقائقه وعوالمه وعلومه ومعارفه، فنظرت إلى الدين وموارثه باعتبارها «فكراً» غير علمى، عبر عن مرحلة من مراحل تطور «العقل الإنسانى»، هى مرحلة «طفولة» هذا العقل.. التى تلتها ونسختها «مرحلة الميتافيزيقا».. والتى تلتها - هى الأخرى - ونسختها «المرحلة

الوضعية»، التي جعلت الكون المادى والواقع الدنيوى فقط - وليس الغيب - هو مصدر المعرفة الحقة والعلم الحقيقى، كما جعلت «العقل» و«التجربة» وحدهما - دون «النقل» و«الوجدان» - الطرق المعتمدة والمأمونة لتحصيل هذه المعرفة . . . فكانت «القطيعة المعرفية» مع الموروث، وبالأذات الموروث الدينى، تلك التى تميزت بها ثقافة الحداثة الغربية، والحداثة الثقافية، عندما عزلت علمانياتها السماء عن الأرض، بدعوى أن «العالم مكتف بذاته»، وأن «الإنسان مكتف بذاته»، وأن تدبير هذه الحياة الدنيا إنما يتم بالأسباب المادية والملكات الإنسانية المودعة فى ظواهرها وعوالمها، دونما حاجة إلى مدبر مفارق ومتعال من وراء الطبيعة . . . حتى لقد جعلت هذه الثقافة الحداثية - التى تمحورت حول الإنسان، دون الله - جعلت من هذا الإنسان «كائنًا طبيعيًا»، و«سيدًا للكون»، وليس ذلك المخلوق الربانى، الذى نفخ الله فيه من روحه، وجعله خليفة له . . . أى سيدًا فى الكون، وليس سيد الكون، وإنما عبدًا لسيد الكون.

ذلك هو تيار التغريب، والحداثة الغربية، الذى نظر أهله، فقط، إلى الغرب فقط، فقلدوه وجمدوا على مقولات ثقافته وفلسفاته . . . كما نظر أهل الجمود الترائى، فقط، إلى الماضى، فقلدوا مقولات سلف عصر تراجعنا الحضارى، وجمدوا عند ظواهر تصوصها .

وثالثًا: تيار الإحياء والتجديد . . الإحياء لأصول الإسلام وثوابته، بالعودة إلى منابع الجوهرية والنقية لهذا الدين الحنيف، والنظر فيها بعقل معاصر، يفقه أحكامها، كما يفقه الواقع الذى يعيش فيه، عاقدًا القرآن بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام» ليصل إلى التجديد فى الفروع - أى الفقه، الذى هو علم الفروع - مبدعًا الأحكام الفقهية الجديدة التى تستجيب للمصالح الشرعية المعاصرة، التى طرحتها وتطرحها مستجدات الواقع الجديد والمعيش .

ففى هذا التيار - الإحيائى والتجديدى - تتوازن «الثوابت» - الدائمة الثبات، والضامنة دوام إسلامية النسق الفكرى على امتداد الزمان والمكان - مع «التجديد» فى الفروع التى تطرحها متغيرات الواقع ومستجداته . . الأمر الذى ينفى القطيعة - قطيعة «الجديد والتجديد» - مع «الثوابت والثبات» . . كما ينفى «الجمود والتقليد»،

الذى يحدث فراغًا فكريًا، سرعان ما تملؤه الفكرية الحدائية الغربية، التى مثلت - منذ نشأتها فى عصر النهضة الأوروبية - قطيعة معرفية مع الموروث الدينى على وجه الخصوص .

لقد دار حديثى مع المثقفين الأندونيسيين، حول هذا التشخيص لتيارات الفكر فى عالم الإسلام...

وأحسست أن كلامى كان واضحًا . . وكان مقبولاً . . اللهم إلا عند ذكر مصطلح «التجديد» أو الإشارة إلى نماذج العلماء المجددين، فإن النظرات والإيماءات كانت تشي بأن هناك لبسًا يحول دون وضوح المقصود من وراء هذا «التجديد» .

وأخيرًا، أدركت أن هناك خلطًا فى المفاهيم والمضامين - مفاهيم ومضامين المصطلحات - حدث لأن عددًا من «الحدائيين» . المتغربين» عمدوا إلى «تسويق بضاعتهم» الوضعية العلمانية - وأحيانًا المادية - تحت عنوان وراية ومصطلح «التجديد» حتى أصبح هذا المصطلح «سئ السمعة»! عند هؤلاء المثقفين الأندونيسيين . الأمر الذى أوجب ويستوجب تحديد مفاهيم ومضامين المصطلحات . . ليميز «التجديد» كسبيل إسلامى أصيل فى التطور بعالم الأفكار . . عن «الحدائية» بمعناها الغربى - تلك التى تعنى القطيعة المعرفية مع ثوابت الدين وأصوله . . فهى نسخ للدين - بالاحود والإنكار . . أو بالتأويل الذى يفرغه من محتواه - بينما يعنى «التجديد»: البعث والإحياء لثوابت الدين وأصوله، مع التطور فى فقه الفروع، مواكبة لمستجدات الواقع المعيش، وحفاظًا - فى ذات الوقت - على صلاح وصلاحية الثوابت والأصول الدينية لكل زمان ومكان . . فهما «الحدائية» و«التجديد» نقيضان فى نظرة كل منهما إلى ثوابت الدين وأصوله . . وأيضًا فى النتائج التى يثمرها كل منهما إزاء الدين .

إن للإسلام فلسفته الفريدة فى النظر إلى الكون . . وإلى مكانة الإنسان فى هذا الوجود . . وإلى نطاق حرية الإنسان فى هذه الحياة . . وهى فلسفة لا وجه للتوفيق

بينها وبين الفلسفة الوضعية التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة، وثقافتها الحداثية المعاصرة.

فالإنسان - في الرؤية الإسلامية - مخلوق لله، سبحانه وتعالى. . وفي هذا قد تتفق الرؤية الإسلامية مع الوضعية الغربية المؤمنة. . لكنها تعود فتفترق عنها عندما تقرر أن الله، سبحانه وتعالى، ليس مجرد خالق فقط، وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدير لهذا الوجود، وهذا الإنسان.

فالله، في التراث الأرسطى الإغريقى، هو مجرد خالق للعالم والوجود، خلقه ثم دفعه للحركة فتحرك، ولا يزال يتحرك بواسطة الأسباب الذاتية المودعة في عوالمه وقواه، دونما حاجة إلى تدبير إلهى أو رعاية ربانية، أو شريعة دينية يأتى بها الوحي، من وراء الطبيعة والوجود المادى، إلى الأنبياء والمرسلين.

وهذه الرؤية الأرسطية هي ذاتها الرؤية الوثنية الجاهلية. . فلقد كان الوثنيون - في الجاهلية - يؤمنون بالله خالقاً لهذا الوجود ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. .

فهم لا ينكرون الخلق والخالق لهذا الوجود. . وإنما استحقوا أوصاف ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم وقفوا بنطاق عمل الذات الإلهية عند «الخلق» فقط، وجعلوا «التدبير» للأصنام والأوثان والوسائط التي أشركوها مع الله، يلجأون إليها إذا أرادوا الحرب أو السلم. . السفر أو القرار. . الفعل أو الترك. . الإقدام أو الإحجام. . الزواج أو الطلاق. . إلى غير ذلك من التدابير لشئون الحياة.

وتلك بعينها، هي الفلسفة الوضعية الغربية، عندما تؤمن بالخلق والخالق. . فهي - بالعلمانية - قد قررت أن العالم مكتف بذاته، وأن الإنسان مكتف بذاته. . فالعالم تدبره الأسباب الذاتية والمادية المودعة في عوالمه ومجتمعاته وقواه

وظواهره . . والإنسان هو سيد الكون . . ولا سلطان على العقل الإنسانى إلا للعقل الإنسانى وحده . . و«العقد الاجتماعى» البشرى يقرره الاختيار الإنسانى وحده، والحرية الإنسانية التى لا سقف عليها ولا إطار يحكمها من وحي أو شريعة تأتى بها السماء.

وفى مقابل هذه الرؤية الوضعية - التى هى بعث وإحياء للتصور الأرسطى، وللتصورات الوثنية الجاهلية - تأتى فريدة الرؤية الإسلامية، التى لا تجعل الله مجرد خالق . . وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدير لكل عوالم المخلوقات، والتى ترى الإنسان خليفة لله، خلقه الله ونفخ فيه من روحه، واستخلفه لعمارة الأرض، وسخر له كل ما فى الوجود، وحباة القدرة والحرية والاختيار والاستطاعة والتمكين . . لكن فى حدود ثوابت عقد وعهد الاستخلاف - عقد وعهد الإنابة والتوكيل - فهذا الإنسان - وفق عبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - «هو عبدٌ لله وحده، وسيد لكل شيء بعده!» هو خليفة ونائب ووكيل لسيد الكون، سبحانه وتعالى، وليس هو سيد الكون . . وهو الحامل لأمانة عمران هذه الأرض . . وهو فى تدبير هذا العمران، مصدر السلطة والسلطان، لكن فى إطار الحلال والحرام الدينى، أى فى إطار الثوابت الدينية - عقيدة وشريعة وقيما - فهذا الإنسان - فى هذه الرؤية الإسلامية - ليس ذلك «الحقير . . الفانى . . المهمش . . المجير»، الذى لا حول له ولا طول . . وأيضاً، ليس هو سيد الكون، المكتفى بذاته عن توجيهات الدين، وتدبير السماء، ووحى الله، سبحانه وتعالى . . وإنما هو - بهذه الرؤية الإسلامية - الرؤية الفلسفية الوسطية :- سلطان الأرض، المحكومة سلطانه بسلطان السماء؛ لأنه خليفة فى الكون، وليس سيد هذا الكون . . لأن سيد الكون - الله، سبحانه وتعالى - ليس مجرد خالق، وإنما هو الخالق والمدير لكل عوالم المخلوقات.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ (٤٩) ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

[طه: ٤٩، ٥٠]

﴿إِنْ رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ

ما من شفيع إلا من بعد إذنهُ ذلِكُمُ اللّهُ ربُّكُم فاعبُدوه أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ [يونس: ١٣].

﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الملكوت: ٦٢].

فالرؤية «الوضعية - العلمانية» الغربية، التي تريد تحرير الاجتماع الإنساني من ثوابت التدبير للشرعية الإلهية، فتقول - مثلاً -: «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» أو تحرر الوطن من الدين ومن العبودية لله، ومن الالتزام بحاكمية الشرعية الإلهية، بدعوى «أن الدين لله، والوطن للجميع». هذه الرؤية التي تعزل السماء عن الأرض، وتخصر الفعل الإلهي في نطاق دون نطاق، هي التعبير الحديث والمعاصر عن الرؤية الوثنية الجاهلية، التي سقّوها القرآن الكريم وسقّو قسمتها هذه عندما قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرُءُوسِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصُلُّ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

بينما الرؤية الإسلامية تجعل الدين لله... أي خالصاً له، دون طغيان الطواغيت والعبودية لهم... وتجعل الوطن أيضاً لله، سخره الله بما فيه من إمكانات للإنسان - الأمة... المواطنين - المستخلفين في عمرانه وتديبره وفق الشرعية الإلهية - التي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف - فالكل - الوطن والمواطنون - في الحقيقة وواقع الأمر - لله، سبحانه وتعالى، وفق المنطق والمبدأ القرآني ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

تلك هي المنطلقات المختلفة لكل من الرؤية الإسلامية المؤمنة للكون... ولكانة الإنسان في هذا الوجود... ولنطاق الحرية الإنسانية في هذه الحياة - وهي الرؤية المؤسسة على فلسفة الخلافة والاستخلاف... وللرؤية «الوضعية الغربية» حتى المؤمنة منها - والتي مثلت وتمثل الجذر الفلسفي الذي يفتح الباب أمام الحداثة الغربية لإنكار الثوابت الدينية، ونسخها، وإقامة القطيعة المعرفية معها، بشكل مباشر وجاد، أو بالتأويل الذي يفرغ الدين ومصطلحاته من محتواه... بينما تحول الرؤية الإسلامية دون فتح هذا الباب، مكثفية - لتلبية احتياجات التطور،

ومتغيرات الواقع، ومستجدات الزمان والمكان والمصالح - بطريق وآليات «التجديد»، الذي يحیی الثوابت، ويبعد الحيوة إلى الأصول، مع التغيير والتجديد والتطوير والإبداع في الفروع التي تراكب مستجدات الواقع والمصالح والحياة.

فإذا كانت الحداثة الغربية - انطلاقاً من الفلسفة الوضعية، التي حررت الدنيا من الدين - قد أقامت قطيعة معرفية مع الموروث الديني.

وإذا كان الجسود والتقليد - في فكرنا الإسلامي - ينكر التجديد، أو يستويب فيه، بدعوى أن الإسلام قد اكتمل ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) والمكتمل - بنظرهم - لا يحتاج إلى تجديد. . فإن تحديد المفاهيم. . وتحرير مضامين المصطلحات. . هو الكفيل بتمييز «التجديد» عن «الحداثة». . وينفي التناقض الموهوم بين «التجديد» وبين «اكتمال الدين».



التجديد هو التحقيق لا اكتمال الدين

إن «اكتمال الدين» . . . و«تجديده» . . . وبتعبير آخر «السلفية» . . . و«التجديد» . . . مصطلحان يرمزان - في عرف بعض الباحثين - إلى نسقين متقابلين، بل ومتناقضين، في الرؤية والمنهج والتفكير والثمرات . . . والذين ينظرون إلى فكرنا الإسلامي بمناهج الفكر الغربي لا يتصورون علاقة وفاق أو اتفاق أو تكامل بين «اكتمال الدين» وبين «تجديده» أو بين «السلفية» وبين «التجديد» . . . ففي الفكر الغربي، كانت «السلفية» - الأرثوذكسية - هي الوقوف عند الأصول فقط - وهي أصول لا علمية ولا عقلانية - حتى لقد سميت هذه «السلفية» هناك بـ «الأصولية» بمعناها الغربي، أي الجمود المناهض للتقدم وللعقل وللعلم ولمواكبة مستجدات الزمان والمكان . . . كما كانت الحداثة هي رد الفعل الغربي للسلفية والأصولية الغربية، التي مثلت ثورة أتت على هذه الأصولية الأرثوذكسية من القواعد والأساس .

لكن منهجنا الإسلامي، بوسطيته الجامعة، لم يعرف ولن يعرف هذه الثنائية الانشطارية التي تقسم التقابل والتضاد بين «اكتمال الدين» . . . و«السلفية» وبين «الاجتهاد فيه» . . . والتجديد له .

إننا نتلو في آيات القرآن الكريم قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣٠]

ونقرأ في السنة النبوية الشريفة، قول رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود . . . فلا نشعر - بالمنهج الإسلامي . . . ووسطيته الجامعة - أن هناك تناقضاً بين اكتمال الدين، بتمام الوحي وختام النبوة والرسالة، وبين التجديد الدائم أبداً لهذا الدين، الذي اكتمل بختم الوحي وتمام القرآن الكريم .

ذلك أن الدين : عقيدة وشريعة . . والعقيدة فيه هي : الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر . . والشريعة فيه هي : كل ما ينهجه المسلم ويسلكه وبقيمه . . عن عبادات . . وقيم . . ومعاملات . . كى يعتقده هذه العقيدة ويتدين بها . . ولكل من العقيدة والشريعة أصول وقواعد وأركان، وهي جميعها قد اكتملت بتمام الرُوحى الذى اكتمل به الدين، وبإقامة الرسول ﷺ وصحابته، رضى الله عنهم، لهذا الدين .

لكن الإنسان المسلم، بحكم خلافته لله . سبحانه وتعالى، فى عمارة الأرض، وسياسة المجتمع، وتنمية العمران، لا بد له - وهو ينجز مهمة خلافته هذه، ويؤدى أمانتها - من إقامة أبنية أخرى يندعها هو فوق هذه الأصول والقواعد والأركان . . فالإسلام - مثلاً - قد بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى - فهذه الأركان الخمسة هي القواعد التى بنى عليها الإسلام، وليست هي كل بناء الإسلام، وإنما هي القواعد التى تعلوها أبنية الفروع . . وهذه الأبنية - الفروع للأصول وخاصة فى المعاملات التى تتغير وتتجدد وتتطور تبعاً لمصلحة ووفقاً لمقتضيات الزمان والمكان - إذا كانت متسقة مع مقاصد الأصول وغايات القواعد وحدود الأركان - فهى «تجديد» فى نطاق وآفاق وروح وتأثيرات هذه الأصول والقواعد والأركان . . فالأصول الثابتة قد اكتملت باكتمال الدين، بينما آفاقها وأثارها والفروع الباسقة منها دائمة النسو والتغير والتطور، شاهدة على دوام التجديد، وعلى العلاقة بين هذا التجديد وبين الثوابت المكتملة من الأصول والقواعد والأركان .

ولوضوح هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى . . كان اتفاق مذاهب الفكر الإسلامى على امتناع الاجتهاد فى الأصول، ففيها وعليها قامت وحدة الأمة - انتهى هي فريضة دينية . . وأصل ديني - منذ اكتمال الدين بختم الرسالة . . وكان اتفاق هذه المذاهب، كذلك، على أن الاجتهاد الإسلامى مجاله «الفروع» . . فهو، عندئذ، يمد - بالتجديد - فروع الأصول إلى المستجدات من الوقائع والمصالح .

ويُحلُّ أحكاماً جديدة - أى فروعاً جديدة - محل أحكام تجاوزها الواقع الذى تغير والعرف الذى تطور والعادات التى تبدلت والمصالح التى استجدت، عندما تكون هذه الأحكام ذات عِلل غائية، تدور معها وجوداً وعدمًا. . بل إن هذا الاجتهاد والتجديد إنما ينهض بدوره الدائم فى الكشف عن جوهر الأصول والقواعد والأركان وتجليتها إذا علاها غبار الابتداع فطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل. . ففى الأصول والقواعد، أيضاً، تجديد - بهذا المعنى - وهو الذى جعل حديث رسول الله ﷺ يتحدث عن «تجديد الدين»، وليس فقط تجديد «فكر المتدينين بالدين». . وهو الذى جعل رسول الله ﷺ، ينبه على أن للإيمان - وهو جوهر الدين - تجديداً. . وذلك عندما قال لصحابته وأمه: «جددوا إيمانكم».

- قيل: يا رسول الله، وكيف يجدد إيماننا؟.

.. قال: «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله» رواد الإمام أحمد.

لأن كلمة التوحيد هى الثورة التى تكشف عن نقاء هذا التوحيد. عندما تزيل عن أصوله وجوهره غبار وآثار العبودية والخضوع للطواغيت. . وبذلك يتجدد الإيمان، ويعود التوحيد إلى مضاء التحرير للإنسان من عبودية هذه الطواغيت. . فيكون أفراد الله، سبحانه وتعالى، بالعبودية هو قمة التحرير لمنكات وطاغات الإنسان!

فليس «التجديد»، إذن، فقيضاً له «اكتمال الدين وثباته». بل إنه السبيل لا متداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته وأصوله إلى الميادين الجديدة، والأمور المستحدثة، والضمان لبقاء «الأصول» صالحة دائمة لكل زمان ومكان. . أى أنه هو الضمان لبقاء الرسالة الخاتمة خالدة، ولولا مده الفروع الجديدة إلى الجديد من المحدثات، وإقامته الخيوط الجديدة بين الأصول الثابتة وبين الجديد الذى يطرحه تطور الحياة. ولولا تجديده الدائم الذى يحلوا الوجه الحقيقى النقى لأصول الدين وثوابته. . لولا دور «التجديد» هذا فى حياة الإسلام ومسيرته لتُسخت وطُمست هذه الأصول. . إما بتجاوز الحياة الممتدة لظل الفروع الأولى والقديمة، فيعزى هذا الامتداد الجديد من ظلال الإسلام. . أو بتشويه البدع، عندما تتراكم، لجوهر هذه الأصول.

إن الله، سبحانه وتعالى، لما تعهد بحفظ القرآن الكريم وصيائه عن التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] يسر للمسلمين أسباب ذلك، فكان جمعه... وتدوينه... وخدمته بعلوم القرآن... وكذلك الحال مع الدين الخاتم والرسالة العامة، التي عنى ختم الرسالات السماوية بها إرادة الله دوام بقائها وعطائها إلى أن يعرض البشر على بارئهم يوم الدين... فكان السبيل إلى دوام بقاء هذا الدين واستمرار عطائه وصلاحه لكل زمان ومكان هو إعمال سنة التجديد للدين والفكر الديني... وهي «سنة» لا تبديل لها ولا تحويل، أي أنها قانون من القوانين الفاعلة والعاملة دائماً وأبداً في النسق الفكري الإسلامي، وليست مجرد «مباح»، أو مجرد حق من حقوق العقل الإسلامي!

هكذا جمعت الوسطية الإسلامية، وتجمع بين «اكتمال الدين» وبين «التجديده»... وربطت بين «السلفية» بمعنى العودة في الدين إلى أصوله ومنابعه الجوهرية والنقية - وبين «التجديد» في الفروع وفي المتغيرات.

ونحن إذا نظرنا إلى ذاتنا الحضارية، بمنهجنا الإسلامي، فسنجد أن في «سلفيتنا» هذه اجتهاداً يميز بين الجوهر - جوهر الوضع الإلهي للدين - وبين الإضافات والنواقص والبدع التي طرأت وعدت على جوهره وأصوله، وسنجد أن في «اجتهادنا» - الذي هو استنباط الأحكام الجديدة للواقع الجديد - سنجد أن في هذا الاجتهاد: سلفية، تستحضر الأصول والمبادئ والمقاصد، لنرى الواقع الجديد في ضوءها، ونستخرج له منها الأحكام الجديدة... ففي السلفية تجديد... وفي التجديد سلفية... وكل المجددين - في مسيرتنا الحضارية - كانوا سلفيين في الأصول، ومجددين في الفروع.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] الذي هو طليعة من يرد على الذهن والباطل إذا ذكر مصطلح «السلفية»، لم يكن مجرد مجتهد، وإنما كان واحداً من أبرز الذين سعوا إلى إبداع مشروع فكري لتجديد الدين الإسلامي كي تتجدد به دنيا المسلمين^(١)... وإن أبرز تلاميذ ابن تيمية، وهو العلامة ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م]، هو الذي عقد - في كتابه [إعلام الموقعين] فصلاً نفيساً جعل عنوانه «فصل في تغير الفتوى واختلافها

بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد... ذلك «لأن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها...»^(٢).

فالثابت في الشريعة هو فلسفة التشريع، والقواعد والنظريات، والأحكام التي قننت للشواب - من مثل القيم والحدود - أما التفاصيل والفروع والجزئيات - التي هي موضوع الفقه - فإن باب الاجتهاد والتجديد مفتوح فيها أمام العقل الفقهى، كى يبدع الجديد من الأحكام، التي تواكب متغيرات الواقع ومستجدات الزمان والمكان والأحوال والنيات والعادات... كما قال ويقول الأنبة «السلفيون - المجددون».

هكذا تحددت... وتحررت... ووضحت المفاهيم... مفاهيم «التجديد» و«الحداثة»... وانتفتت شبهات التناقض بين اكتمال الدين وبين تجديده... وأيضاً بين سلفية العودة إلى الأصول والشواب وبين التجديد فى الفتاوى والأحكام.



• الهوامش

- (١) انظر: ابو الأعلى المودودى (موجز تاريخ تجديد الدين وإنحيائه) ص ٧٣ - ٧٩ طبعة بيروت - مؤسسة الرسالة - سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.
- (٢) [إعلام الموقعين] ج ٣ - ص ٣ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.



ونفس الرفض والنقد - بل أكثر - لتقليد الغرب، وللجمود على الثقافة الحديثة للغريب. . «ذلك لأن المقلدين لثمان الأمم الأخرى - [كما يقول الأفغانى] - ليسوا آرياب تلك العلوم التي ينفلونها. . والتمسك الغربي هو، في الحقيقة، تمسك للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني. . ولقد علمتنا انشجارب، أن المقلدين من كل أمة، المتحليين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. . وطلّاع لجيوش الغالبين وأرياب الغارات، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يشتون أقدامهم. . فتقليد الأجانب يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بهم، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمون وضعة واستئناس لحكم الأجنبي»^(٢١).

٢. وثاني هذه الأصول هو التجديد،

الذي يؤدي إلى:

- تحرير الفكر من قيد التقليد.
- وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف.
- والرجوع في كسب معارف الدين إلى منابعها الأولى.
- واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري.
- وإصلاح أساليب اللغة العربية.
- والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة..

وهو تجديد - كما يقول الإمام محمد عبده - «خالفتُ فيه وفي الدعوة إليه رأى طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم - [من أهل الجمود والتقليد] - وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم - [من أهل الحداثة والتغريب] -»^(٢٢).

٣. وثالث هذه الأصول هو الإصلاح بالإسلام،

وليس بالنموذج الحضاري الغربي الوضعي والعلماني، الذي اقتحم عالم الإسلام في ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة. . «لأن الدين [كما يقول الأفغانى] هو

قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. وإنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرأنا فلا خير لنا فيه.. ولقد كان الخلل والهبوط الذي اعترى حياتنا، من طرح أصول هذا الدين، ونبذها ظهرياً.. والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.. ولا سبيل إلى اليأس والقنوط، فإن جرائم الدين متأصلة في النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته. فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفعها في جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنساني. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططاً.. ولن يزيدها إلا نحساً، ولن يكسبها إلا تعساً^(١)

وبعبارة الإمام محمد عبده: «لقد أشربت أنفس الأمة الانقياد إلى الدين. حتى صار طبعاً فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعب، ويخفق سعيد.. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي إلى اليوم. فإن المأخوذون بها لم يزدادوا إلا فساداً - وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات - فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم.

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارفة عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟^(٢)

٤. ورايع هذه الأصول هو الوسطية الإسلامية،

التي برزت من الغلو والإغراق في المادية.. أو في الروحانية.. وإذا كانت المدنية الأوروبية - كما يقول الإمام محمد عبده - هي «مدنية الملك والسلطان،

مدينة الذهب والفضة، مدينة الفخفخة والبهرج، مدينة الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«البرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك.. فلقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، أخذاً من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية»^(٦٦).

٥- وخامس هذه الأصول هو العقلانية المؤمنة:

تلك التي جمعت ونجّمت بين العقل والنقل.. بين الحكمة والشرعة.. فتقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل - وهو تسمى الإدراك - بالنقل - الذي هو العلم الإلهي الكلي والمنطوق والمحيط - ذلك أن «العقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. وهو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات»^(٦٧).. والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عُرِضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.. والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس المقصود من الإيمان أن يذل الإنسان للخير كما يذل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه.. والعاقِل لا يقلد عاقلاً مثله، فاجدر به أن لا يقلد جاهلاً دونه..»^(٦٨).

ومع هذا التألق لمقام العقل.. فإن هناك أموراً لا يستقل العقل بإدراكها، أو إدراك الحكمة من ورائها، ومن هنا كانت ضرورة استعانتها بالوحي «فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال.. وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه

كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني.. أما الوصول إلى كُنْه حقيقة فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجاً إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة..»^(٦)

٦. وسادس هذه الأصول: الوعي بسنن الله الكونية،

تلك التي تحكم سائر عوالم المخلوقات، والتي تمثل قواعد علم الاجتماع الديني، في التقدم والتخلف.. في النهوض والانحطاط.. في الانتصارات والهزائم.. وفي التدافع بين الأمم والدعوات والحضارات.. وإن «إرشاد الله إيانا أن له في خلقه سنناً ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران ١٣٧] يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه.. والعلم بسنن الله، تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.. إن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تبدل، وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع في الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه..»^(٧)

٧. وسابع هذه الأصول: أن الدولة - في الإسلام -

«مدنية - إسلامية.. لا كهنوتية ولا علمانية،

فلقد أتى الإسلام بالمبادئ والمرجعية.. أما النظم والمؤسسات والآليات، فجميعها بشرية مدنية متطورة، وهي إسلامية بقدر ما تحقق أو تقترب من تحقيق المثال الإسلامي والمرجعية الإسلامية.. وإذا كانت الدولة الكهنوتية قد عرفت الحكم بالحق بالإلهي، فكانت الدولة فيها نائبة عن السماء.. ولا وجود للأمة.. وإذا

كانت الدولة العلمانية تحكم باسم الشعب - ولا وجود فيها لشرعية السماء... فإن الدولة الإسلامية فيها: حاكمية الشريعة... والأمة مستخلقة لتحقيق حاكمية الشريعة... والدولة مستخلقة فيها عن الأمة... فهي نموذج فريد في هذا الباب... "وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر. وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم. كما خولها لأعلامهم يتناول بها من أدناهم. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الفرنج "ثيوكراتيك" أي سلطان إلهي... فأصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها... وكل سلطة تناولها القاضي، والمفتي، وشيخ الإسلام، هي سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامي، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه. أو ينزعه في طريقة نظره... ومع هذا... فالإسلام دين وشرع... لم يدع ما لتقصير لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله... فكان الإسلام: كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظاماً للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها من لم يدخل فيه"^(١١).

٨. والأصل الثامن من أصول هذا المشروع التجديدي هو الشورى،

أي مشاركة الأمة في صنع قرارات دولتها ومجتمعها... "فلا بد من إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين... والقوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة... وبذلك يشارك الأهالي بالحكم الدستوري الصحيح... والأمة هي التي تملك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي، وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظاً أميناً على صون الدستور، وأنه إذا حثت بقسمه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس!"^(١٢).

٩. وتوسع هذه الأصول هو العدالة الاجتماعية،

التي تحقق التكافل الاجتماعي بين الأمة كلها "قال إخاء الذي عقده المصطفى ﷺ، بين المهاجرين والأنصار. كان أشرف عمل تجلّى به قبول اشتراكية الإسلام

الوسطية - التي أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة.. والمغايرة لاشتراكية الغرب، القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام - ذلك أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر، في محيط واحد، وبمناخ ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت، مما لا يتم به نظام الاجتماع..»^(١٣).

والله، سبحانه وتعالى، عندما أضاف مصطلح «المال» في القرآن الكريم إلى ضمير «الفرء» في سبع آيات، وإلى ضمير «الجمع» في سبع وأربعين آية، أراد أن يبين بذلك «على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم..»^(١٤).

١٠- وعاشر هذه الأصول هو إنصاف المرأة،

لششارك الرجل في القيام بفرائض وتكاليف العمل العام - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ويدون هذا الإنصاف لا قيام للأسرة. التي هي اللبنة الأولى والأساسية في بناء الأمة.. «فالأمة تتكون من البيوت [العائلات]، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة.. والرجل والمرأة يتمثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما يتمثلان في الذات والشعور والعقل.. والآية القرآنية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبّر عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [النقرة: ١٢٢٨].. وهذا الأمر - القوامة - يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء. ذلك أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس، يرجع إلى رأيه في الخلاف؛ كي لا تنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام.. والرئاسة هنا إرشاد ومراقبة وملاحظة، وليست قهراً ولا سلباً للإرادة.. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن.. وكلاهما بشر تام، له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذة عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه. ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام

بحقوقه.. أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم، فإنهم إنما يلدنون عبيداً لغيرهم!...»^(١٥).

تلك نماذج من معالم المشروع النهضوي، التي أثمرتها إبداعات الإحياء والتجديد.. تلك التي جسدت منهاج التجديد الإسلامي في: استصحاب الثوابت والقواعد والأصول.. ووجدت في فقه الواقع، فجاءت هذه المعالم الإسلامية تماماً.. وفي ذات الوقت مستجيبة لتغيرات ومستجدات ومصالح الواقع المعيش..

• الهوامش

- (١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٣١٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
- (٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٥ - ١٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
- (٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٣١٨.
- (٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ١٩٩.
- (٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ١٠٩، ٢٣١.
- (٦) المصدر السابق: ج٣ ص ٢٠٥، ٢٤٢.
- (٧) المصدر السابق: ج٥ ص ٤٢٨، ج٣ ص ٢٩٨، ٣٢٥.
- (٨) المصدر السابق: ج٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١، ج٤ ص ٤١٤.
- (٩) المصدر السابق: ج٣ ص ٤١٢، ٤٢٦، ٣٧٩، ٣٩٧.
- (١٠) المصدر السابق: ج٥ ص ٩٤، ٩٥، ج٣ ص ٢٨٤.
- (١١) المصدر السابق: ج٣ ص ٢٣٣ - ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ج٤ ص ٤١٢.
- (١٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩.
- (١٣) المصدر السابق ص ٤١٤ - ٤١٧.
- (١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٥ ص ١٩٤.
- (١٥) المصدر السابق: ج٤ ص ٦٠٦ - ٦١١.

نماذج حداثة للقطيعة مع الموروث

وإذا كانت هذه الأصول الفكرية العشرة، هي نماذج للتجديد، الذي يستصحب الثوابت الإسلامية، ويطور في المتغيرات... فهل في واقعنا الفكري المعاصر نماذج لحداثة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وقواعده؟؟.

إن الإجابة - الصريحة - هي نعم - مع الأسف الشديد! فلقد نجح التغريب والاستلاب الحضاري في جعل المرجعية الوضعية تراحم المرجعية الإسلامية في فضاءنا الفكري... وانطلق نفر من المتغربين، الذين ضربت عقولهم وصيغت رؤاهم وفلسفاتهم وفق المناهج الوضعية الغربية، من هذه المرجعية الوافدة، فبشروا بالمقولات والروى الحديثة - التي قلدوا فيها «سلفهم الغربي» من فلاسفة التنوير الغربي - متحدّين ثوابت الأمة، وخارجين على نسقها الإيماني، بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام.

وحتى لا ندع مجالاً «للاستنتاج»، أو «التأويل» أو «الادعاءات»، ونحن نقدم نماذج لهذه الحداثة «الغربية»... فإننا سنقدم نصوص أصحابها، كما كتبوها ونشروها، تاركين الحكم عليها وعلى موقفها من ثوابت الإسلام للقطرة السليمة التي تقرّ وتأمل هذه النصوص... ولنتيح - أيضاً - فرصة النظرة المقارنة بين نصوص حداثة القطيعة مع الموروث هذه، وبين نصوص التجديد الإسلامي، التي سبق وأوردناها لرواد عدرسة الإحياء والتجديد.

● إن الحداثة الغربية - التي هي ثقافة التنوير الغربي الوضعي - هي التي أعلنت وتعلن - بصريح العبارة - أنها قد أقامت وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين، وأنها حتى إذا استخدمت مصطلحات القاموس الديني، فإنها تجرد هذه المصطلحات وتفرغها من مضامينها الدينية والإيمانية... أي أنها، حتى عندما تستخدم لغة

الدين، فإنها تفرغ هذا الدين من الدين، وذلك بتأويل الدين لائسته، وتحويله إلى نسق فكرى إنسانى، لا علاقة له بالغيب والسما!.. تعلن الحداثة الغربية ذلك، فتقول - بلسان أهلها والمدافعين عنها -:

«إنه بعد أن كان المسيح حريصاً على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فأيديولوجية التنوير قد أقامت القطيعة الإستمولوجية [المعرفية] الكبرى، التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للمقدس توما الأكوينى [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعداً راح الأمل بملكة الله ينزاح؛ لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية يتمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعاً لحكم الوعى البشرى، الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يؤهم أحداً، فتفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى!..»^(١).

● وعلى هذا الدرب - درب القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام وأصوله - سار نفر من الحداثيين العرب - حذو النعل بالنعل - فرأينا أحدهم يذهب على درب تأويل الإسلام تأويلاً يفرغ الدين من الدين، فيقول - عن الذات الإنهية - التى أجمع المسلمون على تزيهها، فى الذات والصفات والأفعال، عن بمائلة أو مشابهة المحدثات ﴿ليس كمثله شيء﴾ (النور: ١١) .. ويقول عن «التوحيد» و«الوحي» و«النبوة والرسالة» و«الإيمان» و«الغيب» و«التراث» وغيرها من مفاهيم ثوابت الدين ومصطلحاته:

إنه - أى الله - «هو الأرض.. والخير.. والحرية.. والعدل.. والعتاد.. والعدة.. وصرخات الألم.. وصيحات الفرح.. فهو تعبير أدبى أكثر منه وصفاً لواقع، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفاً خبرياً.. ولذلك، وجب التخلّى عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة - فى علم أصول الدين - من مثل: «الله» و«الرسول» و«الدين» و«الجنة» و«النار» و«الثواب» و«العقاب»؛ لأن هذه الألفاظ والمصطلحات قطعية؛ ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة... ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية.. فما الله إلا وعى الإنسان بذاته.. وما صفاته وأسماءه إلا آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها.. وكل

صفات الله - العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة - كلها صفات الإنسان الكامل. وكل أسماء الله الحسنى تعنى آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها.. فالحقيقة هى الإنسان، والواقع الذى يعيش فيه.. ولذلك، فتعبير: الإنسان الكامل، أكثر تعبيراً من لفظ الله..

والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية، كما هو الحال فى علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة.. فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتخليصه من شوائبه اللاهوتية.

فليس للعقائد صدق داخلى.. ولا يوجد دين فى ذاته.. والوحى هو البناء المثالى للعالم.. والمطلوب هو تحويل الوحى إلى أيديولوجية وإلى علم إنسانى.

والعلمانية هى أساس الوحى، فالوحى علمانى فى جوهره، والدينية طائفة عليه من صنع التاريخ. تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور.

والتراث قضية وطنية لا دينية، ومادة التراث نسقناها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر.

والإلحاد هو التجديد، والتحول من القول إلى العمل: ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع إنه وعى بالحاضر.. ودرء للأخطار.. بل هو المعنى الأصلى للإيمان.. والمطلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك.. ومن العقيدة إلى الثورة^(٢٦)!!

هكذا بلغ «التأويل - العيشى» الذروة - إن لم يكن قد تجاوزها! فكل ثوابت الإسلام، وجميع عقائده، ومضامين مصطلحاته - من الله.. إلى الرسول.. إلى الدين.. إلى الجنة.. إلى النار.. إلى الثواب والعقاب - قد جردت من محتواها الدينى - «فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى» كما قال الحدادىون الغربيون! وانقلبت مصطلحات الدين وعقائده اثوابت إلى هذا المبعث الحدادى اللا معقول!



● ونموذج ثان، لحدائى آخر، من الذين اتخذوا الدراسات الإسلامية ميداناً لهذا التأويل العبثى . . يقول - عن القرآن الكريم - الذى يؤمن المؤمنون - كل المؤمنين - أنه وحى سماوى، وتنزيل إلهى معجز وخالد . . يقول هذا الحدائى - عن القرآن - : إنه نص بشرى، ومُنتج ثقافى . . لا قداسة نه! وأن بينه وبين الشعر الجاهلى - وخاصة شعر الصعاليك - شبيهاً كبيراً! وينص عباراته - التى لا تحتاج إلى تعليق - يقول:

«من الواقع تكون النص [القرآن]، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع هو الذى أنتج النص.. الواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً.

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفهية.. وهذه الثقافة هى الفاعل، والنص منفعل ومفعول.. فالنص القرآنى فى حقيقته وجوهره مُنتج ثقافى، والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة فترة تزيد على العشرين عاماً.. فهو ديكالكتيك صاعد وليس ديكالكتيكاً هابطاً.. والإيمان بوجود ميتا فيزيقى سابق للنص يطمس هذه الحقيقة.. والفكر الرجعى فى تيار الثقافة العربية هو الذى يحول النص من نص لغوى إلى شىء له قداسته..

والنص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص، وهو يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً، والفاوق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكون النص القرآنى.. فهناك عناصر تشابه بين النص القرآنى ونصوص الثقافة عامة، وبين النص الشعرى بصفة خاصة.. وسياق مخاطبة النساء فى القرآن، المغاير لسياق مخاطبة الرجال، هو انحياز منه لنصوص الصعاليك!»

هذا عن القرآن . . أما عن «النبوة والرسالة» و«الوحى» . . فإنها - عند هذا الحدائى الماركسى - : ظواهر إنسانية، وثمره «لقوة المخيلة» الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مغارقة للواقع وقوانينه . . فالأنبياء، مثل الشعراء والمتصوفة، مع فارق فى درجة «المخيلة»، فقط لا غير . . وينص عباراته :

«إن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام قاعلية «المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء.. ومن حيث قدرة «المخيلة» وفعاليتها.

فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب.

وتفسير النبوة اعتماداً على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التي تكون في «الأنبياء» أقوى منها عند سواهم من البشر.. إنها حالة من حالات الفاعلية الخلاقة، فالنبوة، في ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة مفارقة.. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثباً عليه وتجاوزاً لقوانينه، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها»^(١٦).

وبعد تحويل القرآن إلى نص بشري.. والوحي والنبوة إلى قوة في «المخيلة» الإنسانية.. يذهب هذا الحدائي الماركسي إلى تطبيق «التاريخية والتاريخانية» على معانٍ ومضامين وأحكام القرآن - كل معانيه ومضامينه وأحكامه - من العقائد إلى الأحكام وحتى القيم والأخلاق والقصص - الأمر الذي يعني نسخ كل مضامين القرآن وتجاوزها.. فيقول:

«... فالقرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقاً جوهرياً ثابتاً.. وليس ثمة عناصر جوهريّة ثابتة في النصوص... فالقرآن قد تحول من لحظة نزوله من كونه [نصاً إلهياً] وصار فهماً [نصاً إنسانياً]. لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل.

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والتخصص.. وهي تحرك دلالة النصوص وتنقلها في الغالب من الحقيقة إلى المجاز...»^(١٧).

هكذا، تم لعبت الحدائي بالثوابت والمقديسات - القرآن، والنبوة والرسالة.. والوحي - على هذا النحو اللا معقول!.*



● ونموذج ثالث، لشاعر حدائي - يسمونه «الشاعر الكبير» - بدأ عروياً، وانتهى فرنكفونياً، في بلد ليس لها تاريخ في الفرنكفونية! أي أنه فرنكفولي بالهوية والهوى! ولقد احترق - في كتاباته الصحفية.. التي غلبت شعره - الدعوة إلى:

• تعبير الآثى بالجسد . . أى جعل الجسد الأثوى العارى «الموديل» هو الملهم
لرسميين والنحاتين والمصورين والأدباء . . ففضاحة الجسد الأثوى العارى - عنده
- لا تعادلها فصاحة أخرى! وهو يسحب هذه الدعوة حتى على جسد آدم وحواء،
عليهما السلام!.

• والدعوة إلى احتقار العربية - لغة القرآن الكريم - وذلك عندما يدافع عن
وصف لويس عوض لهذه اللغة الوطنية والقومية بأنها: «لغة ميتة . . ودخيلة»!!.

• والدعوة إلى الاحتفاء والاحتفال بالإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق م] بتزيين
مياديننا بممثليته - وهو الذى افتتح مرحلة غزو الغرب للشرق، والقهر الحضارى
لثقافات الشرق ولغاته ودياناته، عشرة قرون. لم تنقش ظلماتها إلا بالفتوحات
التحريرية التى قادها الإسلام والمسلمون.

• والمشاركة فى الاحتفال - عامين كاملين - بالاحتلال، بدلاً من الاستقلال -
الاحتفال بمرور قرنين على غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] لمصر [١٢١٣ -
١٢١٦ هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١ م] وإحراقه مئات القرى المصرية، وإبادته لسبع تعداد
الشعب المصرى، وتحويله الأزهر الشريف إلى إصطبل للخيل! مزق الفرنسيون
فيه القرآن الكريم، وتراث العلوم الإسلامية . . بل وبالوا وتغوطوا فيه!

• والتحدى لمشاعر الأمة، الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية، عندما
غضبت كل الأمة من الوحشية الصهيونية التى استخدمت كل أسلحة الدمار
الثقيلة، والمحرمة دولياً، ضد أطفال وشباب ونساء وشيوخ انتفاضة الأقصى المبارك
والقدس الشريف والاستقلال الفلسطينى - التى تفجرت فى ٢٨ سبتمبر سنة
٢٠٠٠ م - فكتب هذا الشاعر الحدائى داعياً إلى حب الجنود الصهاينة الذين أطلقوا
الرصاص على الطفل الفلسطينى الأعزل - محمد الذرة - لمدة خمس وأربعين
دقيقة!!.

فالكرهية - فى عرف هذا الشاعر الحدائى - يجب أن تقف عند «القتل» ولا
تتعداه إلى القاتل»!!^(٤٥) . .

ولست أدرى - ولا المتجم يدري - هل يمكن كراهة الزنا، مع حب الزناة؟!
وكراهة السرقة، مع حب اللصوص؟! وكراهة «الشيطنة» مع حب الشياطين!! . .

وهل يمكن أن نقيم العدالة والقصاص على الجريمة، مع الخب وإطلاق السراح للمجرمين؟! .

• ولقد تَوَجَّه هذا الشاعر الحدائي مسلسل القطيعة مع ثوابت الأمة، عندما سئل عن رأيه فيما:

«لو اصطدم المبدع الشاعر بما هو مقدس؟» .

فإذا به - بعد أن أعلن «تقليدسه لقيمة العقل وقيمة الحرية» يعلن رفضه لوجود «المقدس الديني» من الأصل والأساس! . فهذا الذي يسمونه «مقدساً دينياً»، ليس أكثر من اختراع نخترعه نحن، وادعاء ندعيه . ونص عبارته - في الإجابة على هذا السؤال - يقول:

«إن المقدس ليس كائنًا خارج الشعر، أو خارج الإنسان.. المقدس هو مقدس لأننا نقدسه.. والشاعر يفترض أنه قد غلبته النشوة، أو روح السخرية، أو الجحود. كل هذه المشاعر وكل هذه الحالات تصادف الإنسان، وتصادف الشاعر، ماذا يصنع في هذه الحالة؟ نحن نتوقع دائماً من الشاعر أن يكتب بلغة تؤدي ما يريد أن يؤديه، لكن تظل محافظة على ما يجب لها من جمال»^(٦٦) .

فالمقدس - بإطلاق - عند هذا الشاعر الحدائي الفرנקفوني - هو «العقل» و«الحرية» . أما المقدس الديني فهو اختراع يخترعه من يؤمن به، ولا وجود له في الواقع والحقيقة . . والسخرية من هذا المقدس الديني، والجحود له، في لحظات «النشوة» و«الإبداع» أمر مطلوب، طالما كانت العبارة التي نعبر بها عن هذه السخرية وهذا الجحود، جميلة . . فقط لا غير!! .

هكذا تعاملت وتعامل حدائة القطيعة المعرفية مع الموروث، مع المقدس الديني، وثوابت القيم، وما أجمعت واجتمعت عليه الفطر السليمة من مشاعر وحقائق تتعلق بالتراث والتاريخ! .

• أما النموذج الرابع لحدائة القطيعة مع قيم الأمة ومعايير الخلال والحرام التي جاء بها دينها، وتجلت عادات وأعرافاً في حياتها . فهو «فنان كبير»، احترف

رسم الجسد العارى للنساء... وللنساء المدمات: اللائي يكتسبن من حرفة «الموديل»، واللائي يخجلن من هذه الحرفة، فيكتمن ممارستهن لها حتى عن زميلاتهن فيها... لأنها - حتى فى عرفهن - «نخاسة حدائية»، يعن فيها الحشمة والكرامة والكبرياء والخصوصية لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!

وفى حديث صحفى مع هذا «الفنان الكبير» نشرته مجلة أدبية شهيرة - كجزء من كتاب تحت الطبع - يصدر عن هذا «الفنان»، تحدث عن واحدة من النساء «الموديل»... تلك التى رسم لجسدها العارى ثلاثمائة لوحة، وهى ترقص - بعد أن «سَطَّلَهَا» باخشيش، وأسكرها بزجاجة «البولانكى» الرخيص!... يتحدث هذا «الفنان» الكبير عن «تجربته الفنية» مع الجسد الأنثوى العارى، فيقول - عن «صفية»، التى «جنَّ بجسدها العارى، حين شاهده، إلى حد تخصيص معرض كامل لها هو معرض [الراقصة] أوائل الثمانينيات... وكيف أحضر لها «قرش الحشيش» وزجاجة «البولانكى» الرخيص، لتسكر حتى الصباح بينما يدير اسطوانة [يا مسهرنى] لسيد مكاوى، لترقص على إيقاعها طول الليل»!

ثم يستطرد فى الحديث عن «تجربته الفنية» هذه، فيقول:

«كانت جميلة، أطرافها طويلة، وجسمها طويل. لقد أضافت إلى خطوطى الكثير... منحنتى معرض [الراقصة]، ومنحنتى القدرة على رسم «الإسكتش» السريع [٣٠٠ سكتش] كنت أرسم بسرعة جنونية على أوراق «الكلك» حتى الألق حركة جسدها مع إيقاع الموسيقى... ومنحنتى حساسية خاصة فى التعامل مع الإيقاع، ومنحنتى أيضًا صدقًا وإخلاصًا نادرًا... وأظن أن هذا التجاوب شرط مهم لمستوى اللوحة، وحتى لا أضطر إلى المزيد من الإغراءات من فلوس وتودد وغواية»!!

وحتى لا يظن أحد أن هذا «الفنان الكبير» قد صنع ويصنع ذلك من باب «الضرورات النبى تبيح المحظورات» - مع التنبيه على أننا هنا بإزاء «ضرورة»... ولا «حاجة» بل ولا حتى أمرًا من «التحسينات» - إذ الكارثة أن هذا الفنان الحدائى الكبير يمارس هذه «النخاسة الفنية» باعتبارها الأمر الطبيعى... ويتحدث عن حقبة

السبعينيات - من القرن العشرين - تلك التي ضغطت فيها موجة التدين والصحة الإسلامية على كليات الفنون الجميلة حتى آتت نظام «الموديل العارى» فى تلك الكليات. - يتحدث عن هذه الحقبة باعتبارها (الزمن الأهل) ! لأن الجسد الانشوى العارى - بتظر هذه الحداثة - ليس فقط كلاً مباحاً ومستباحاً، وإنما هو - كما يقول - أقدم معبود عبده الإنسان. - وأطول المعبودات التي عبدها هذا الإنسان فى العمر والتاريخ !

نعم، يعلن هذا «الفنان» عن هذه «العقائد الحداثية» لهذا «الدين الحداثى» فيقول:

«لقد خلقنا الله فى أحسن تكوين، ولهذا تكون النسب الصحيحة عارية بالضرورة.. بل ولا تكون صحيحة إلا عارية، ولا يمكن أن يتم تجريد سليم دون عرى.

تلك حقيقة أساسية فى الفن، لكن الشرط الاجتماعى القائم لا يسمح بعرض اللوحات العارية (زمن أهل) ... إن جسد المرأة هو أقدم عبادة عرفها الإنسان. وأعظم ديانة منذ عرفت الأديان. إن «أفروديت»^(٧) الطالعة من زبد البحر، عبدت ٢٠ ألف سنة، أكثر من كل الديانات السماوية..!!^(٨)

وهكذا. - فلا اعتبار لما تقرره الأديان - كل الأديان - من أن البشرية - التي بدأت بآدم، عليه السلام - قد بدأت - قبل الانحرافات الوثنية - بعبادة الله، سبحانه وتعالى. - لأن «الحداثة» - التي أصبحت «ديننا» للحدائين - قد جعلت الجسد الانشوى العارى أقدم المعبودات، لأقدم الديانات. - وأطول الديانات عرساً فى التاريخ !

تلك نماذج - مجرد نماذج - للأفكار والآداب والفنون الحداثية. التي أقامت قطيعة معرفية كبرى مع موروث الأمة. - ومع موروثها الدينى - عقيدة وشريعة وقيما - على وجه الخصوص.



• الهوامش

- (١) إميل يولا: [الحرية، العلمة: حرب شطري فرنسا ومبدأ العدالة] منشورات سيرف. باريس سنة ١٩٨٧م - نقلا عن: هاشم صالح - مجلة [الوحدة] - الرباط - المغرب - عدد: فبراير - مارس سنة ١٩٩٢م ص ٢٠، ٢١.
- (٢) د. حسن حنفي [النرات والتجديد] ص ١٢٨، ١٣٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤ - ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥، ١٧٦، ١٧٧، ٦٦، ٢٢، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٨، ٦٩، ٢١، ١٧٣، ٦٧، ٦١. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.
- (٣) د. نصر حامد أبو زيد [مفهوم النص] ص ٥٦، ٣٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- (٤) د. نصر حامد أبو زيد [نقد الخطاب الديني] ص ٨٣، ٩٤، ٨٢، ٨٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- (٥) أحمد عبد المعطي حجازي: «سوف أكون صريحا مع الجميع» [الآهرام] ص ٢٨ في ١١ - ١٠ - سنة ٢٠٠٠م.
- (٦) أحمد عبد المعطي حجازي - من حوار معه «أخبار الكتاب» العدد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - اتحاد كتاب مصر - القاهرة.
- (٧) أفروديت، هي إلهة الجمال والحب في الأساطير الوثنية الإغريقية... ولقد كذب هذا الفنان عندما عمم عبادة أفروديت على الإنسانية، زاعما أن ذلك قد استمر عشرين ألف سنة... وكان تاريخ الإنسانية هو هذه «اللحظة الأسطورية الإغريقية» وحدها!.
- (٨) من حديث أجرته عبلة الرويتي، مع الفنان «حسن سليمان» - مجلة «أخبار الأدب» - القاهرة - العدد ٣٦٦ في ١٦ - ٧ - سنة ٢٠٠٠م.



رفض التجديد الإسلامى للحداثة الغربية

بقى أن ننبه، فى ختام هذه الدراسة، على وعى المجددين الإسلاميين - منذ فجر الاحتكاك الحضارى بين أمتنا الإسلامية والحضارة الغربية - وعيهم بالطبيعة «الدهرية - اللادينية» لهذه الثقافة الحداثية، وبالقطيعة المعرفية التى تقيمها هذه الحداثة مع الموروث الدينى. . وتصدى هؤلاء المجددين لهذه الثقافة الحداثية اللادينية، منذ بواكير تسللها إلى بلادنا، أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، فى ركاب الغزوة الأوروبية لوطن العروبة وعالم الإسلام.

● لقد رأى الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ - ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] هذه الحداثة، التى وفدت مع الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ - ١٢١٦هـ - ١٧٩٨ - ١٨٠١م]، رآها «دهرية» لا علاقة لها بأى دين من الأديان، وذلك عندما سخر من دعوى «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وحملته الفرنسية اعتناقهم دين الإسلام، فقال الجبرتى:

«إن إسلامهم نَصَب.. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون»^(١).

فلم يكشف زيف دعوهم اعتناق الإسلام، بالقول إنهم لا يزالون على نصرانيتهم، وإنما نفذت بصيرته إلى الطبيعة اللادينية والدهرية للفلسفة الوضعية التى تأسست عليها الحداثة التى جاءوا بها، والتى اعتمدتها الثورة الفرنسية بديلاً للدين واللاهوت.

● وكذلك فعل رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م] الذى خبر ثقافة الحداثة الأوروبية بباريس. . فرآها دنيوية طبيعية لا دينية، يعيشها أهل

باريس، الذين - كما قال - : «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.. علوم التمدن المدني».

وتميز الطهطاوي بين براعة الفرنسيين في العلوم الكونية - علوم المادة.. والتمدن المدني - وبين ضلال الفلسفة الوضعية عن السبيل الإيمانية.. خص هذه المعادلة في بيتين من الشعر، قال فيهما:

أبوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب
ونيل الكفر ليس له صباح أما هذا وحفكم عجيب

● وكذلك فعل جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] الذي رأى هذه الفلسفة الوضعية اللادينية، - التي مهدت لثورة الفرنسية، بفلسفة الأنوار وموسوعتها، والتي اعتمدتها الثورة الفرنسية «دينًا طبيعيًا» أحلته محل «الدين الإلهي» - رآها الأفغاني مذهبًا للذة الحسية، يبعث من جذيد مذهب «أبيقور» الكلي [٣٤١ - ٢٧٠ ق م] مذهب اللذة والذهرية - على أيدي فلاسفة التنوير الوضعي اللاديني، من أمثال «فولتير» [١٧٣٤ - ١٧٧٨ م] و«روسو» [١٧١٢ - ١٧٧٨ م] اللذين - كما يقول الأفغاني - : «يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فنبشاً قبر أبيقور الكلي. وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف ديني، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني.. وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء [برأهم الله مما قالوا] وكثيراً ما ألف «فولتير» من الكتب في تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين، ونالت من عقولهم. فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم.. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة [في زعمهم]، شريعة الطبيعة..»^(٢).

هكذا كشف الفيلسوف جمال الدين الأفغاني أضاليل الفلسفة الوضعية الأوروبية، والتنوير العلماني اللاديني، والآثار المدمرة لهذه الدهرية الحيوانية، التي وقفت بالإنسان عند الطبيعة والمادة، فعزلته عن الروح الإلهية، والنعمة الربانية، والرعاية السماوية. كشف الأفغاني الأساس الفلسفي لثقافة الحداثة هذا الكشف انبغرى والعميق والشجاع - في عصر كانت الدنيا تتعبد في محاريب الثورة الفرنسية وفلسفتها وثقافتها! وبهذا الإيجاز الفلسفي البليغ.

● وعندما قامت في بلادنا - بواسطة المثقفين الموارنة، الذين صيغت عقولهم وثقافتهم في مدارس الإرساليات الفرنسية - مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية - وفي مقدمتها مجلة [المقتطف] (١٢٩٣ - ١٣٧١هـ - ١٨٨٩ - ١٩٥٢م) التي أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية»، كشف المجدد المجتهد «عبد الله النديم» (١٢٦١ - ١٣١٣هـ - ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) الطابع الإلحادي لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب [المقتطف]، واصفاً إياهم بأنهم: «أعداء الله وأنبيائه». والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية. ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق.. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها الأديان»^(١٧).

● ولقد ظل هذا الموقف الواعي بمادية ودهرية ولا دينية ثقافة الحداثة الغربية، ميمراً لعلماء الأمة ومفكراتها، منذ عصر الجبرتي.. وحتى يومنا هذا.. فوجدنا الدكتور محمد خاتمي يرصد الخصيصة المميزة لثقافة الحداثة الغربية عن ثقافتنا الإسلامية، وعن ثقافة أوروبا ما قبل التنوير الأوروبي، فيرى أن هذه الخصيصة هي، أولاً وقبل كل شيء، ذلك الانقلاب الذي جعل ثقافة الحداثة تتمحور حول «الإنسان»، بعد أن كانت الثقافة تتمحور حول «الله».. فلقد غدا الإنسان الطبيعي، المبتوث الصلة بالله والدين والسما، هو محور الحداثة الأوروبية وثقافتها.. «فالحداثة لفظ يراد به التحولات التي جرت في الغرب في العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالي يمكن القول، بتعبير أدق، إن الحداثة هي الثقافة

التي تتمحور حول الإنسان، في مقابل ثقافتنا التي تتمحور حول الله.. فالحدثاء هي روح الحضارة الغربية، المنسجمة معها، والمختلفة والمتباينة مع ثقافتنا الإسلامية، ومع ثقافة الغرب القروسطية.

لقد كانت ثقافة العالم الإسلامي وثقافة الغرب القروسطية، على نحو ما، نوعي جنس واحد، إن لم نقل إنهما صنفان لنوع واحد، وكان أبرز وجوه الشبه بينهما هو محورية الله في فكر الإنسان واعتقاده وفي نظامه الفكري والأخلاقي والعاطفي.. ولقد حارب الغرب ثقافته القروسطية هذه، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة، التي تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها.. فكان ذلك التحول - من محورية الله إلى محورية الإنسان - أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة..^(١٥)

● وإذا كنا قد سبق وأوردنا الاعتراف الصريح لأضرار الحدثاء ودعائهم، بأن مقصدها وغايتها ومعناها هو إحلال «نظام الطبيعة بدلاً من نظام النعمة الإلهية» وإحلال «هيمنة العقل بدلاً من مملكة الله» وجعل «الإنسان وحده المقياس للإنسان».. فلقد كان شجاعاً - والشجاعة تحمد حتى من الخصوم الفكريين! - ذلك الحدثاء - الذي يتجاوز الآن «الحدثاء» إلى عبثية وتفكيك وعدمية ولا أدريّة - ما بعد الحدثاء - عندما استخدم منهاج «شُنت فوضحت!»، في وصفه الموجز لهذه الحدثاء فقال:

«إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»^(١٦)!!

نعم!.. هكذا تحدث الحدثاؤون عن الذات الإلهية.. تعالى الله عن ما به يتحدثون!..

تلك هي «الحدثاء الغربية».. وهذا هو «التجديد الإسلامي».. وتلك نماذج من مقولات المجددين من علماء الإسلام.. ومن مقولات الحدثائين، الذين «امتحنوا» الإسلاميات منهم.. والذين «امتحنوا» الآداب والفنون.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَموَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
[الأنفال: ٣٦، ٣٧]

و ﴿لَقَضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

• الهوامش

- (١) امظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] ص ٣٤ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
- (٢) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ٢ ص ١٥٩، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- (٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٦١، ١٦٢.
- (٤) مجلة [الاستاذ] - القاهرة - العدد ٣٩، ص ٩٢٣، ٩٢٤ فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣١٠هـ مايو سنة ١٨٩٣م.
- (٥) د. محمد حاقى [الدين والراث والحداثة والتنمية والحرية] ص ٤١ - ٤٩، طبعة القاهرة - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م.
- (٦) د. على حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف ريتون وأشبار أركون» صحيفة [الحياة] - لندن - فى ١٨ - ١١ - سنة ١٩٩٦م.

المراجع

- ابن القيم : [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- أحمد عبد المعطى حجازى: مقال: «سوف أكون صريحاً مع الجميع» - [الأهرام] فى ١١ - ١٠ - ٢٠٠٠ م.
- : حوار: نشرة [اتحاد الكتاب] - القاهرة - عدد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م.
- الآفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- إميل بولا : [الحرية، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة] طبعة باريس - منشورات سيرف سنة ١٩٨٧ م.
- الجبرتى (عبد الرحمن) : [مظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.
- د. حسن حنفى : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م.
- حسن سليمان : حوار مع عبلة الروينى - مجلة [أخبار الأدب] - القاهرة - عدد ٣٦٦ فى ١٦ - ٧ - سنة ٢٠٠٠ م.
- الطهطاوى (رفاعة رافع) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- عبد الله النديم : مجلة [الأستاذ] - عدد ٣٩ - القاهرة فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣١٠ - مايو سنة ١٨٩٣ م.

د. على حرب : مقال «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشجار أركون» صحيفة [الحياة] - لندن - في ١٨ - ١١ - سنة ١٩٩٦م.

د. محمد خاقي : [الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

محمد عبده (الأستاذ الإمام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

المودودي (أبو الأعلى) : [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] طبعة بيروت - مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.

د. نصر حامد أبو زيد : [مفهوم النص] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م. : [نقد الخطاب الديني] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

هاشم صالح : مجلة [الوحدة] - الرباط - عدد فبراير - مارس سنة ١٩٩٢م.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
التجديد: هو التحقيق لاكتمال الدين	١٣
من معالم المشروع الحضارى لمدرسة الإحياء والتجديد	١٩
نماذج حدائفة للقطعة مع الموروث	٢٧
رفض التجديد الإسلامى للحدائفة الغربية	٣٧
المراجع	٤٣

رقم الإيداع ١٦٧١ / ٢٠٠٣

دار الناصر للطباعة والإستلامية
٢ - شتاتع شتاتعل شتاتع الفتامرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٣
الرقم البريدي : ١١٢٣١

EL Shorouk — الشروق



6221102900713

L.E 4.000

مستقبل خير مجتهد